

الفصل الأول

المسيحية والمسيحيون في القرآن الكريم والسنة النبوية

الإسلام والتعددية

من الأمور المقررة في القرآن الكريم اعترافه بالتعددية، سواء أكانت
تعددية عرقية أم دينية أم غير ذلك، فنرى في سورة الحجرات:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (١).

ونرى في سورة المائدة:

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن
لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِئْتِنًاكُمْ بِمَا
كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (٢).

ويقول في سورة الحج:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ (٣).

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) سورة المائدة الآية ٤٨.

(٣) سورة الحج الآية ٦٧.

والأمة كما يقول معجم ألفاظ القرآن الكريم هي «كل جماعة يجمعهم أمر ما... والأمة الدين، والأمة الحين^(١)» معنى هذا أن الإسلام يقر التعددية، بل يجعلها أساساً للتعرف بين البشر، وأساس الابتلاء (الاختبار) في الدنيا. في ضوء هذا الاعتراف بالتعددية نتعرف إلى موقف الإسلام من المسيحيين باعتبارهم أصحاب ديانة سابقة عليه.

دلالة الألفاظ

لم ترد كلمة «مسيحيون» في القرآن الكريم، بل وردت كلمة «نصارى» كما وردت كلمة «الأنصار» للدلالة على أتباع الدين الذي جاء به المسيح عليه السلام، وهذا يبين أن الدين الإسلامى يطلق على أنصار المسيح الكلمة نفسها التي يطلقها على أنصار النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

مكانة النصارى فى القرآن

وقد حدد القرآن الكريم مكانة النصارى بالنسبة للمسلمين بقوله:

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّونَ﴾^(٣).

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم، (إعداد مجمع اللغة العربية) القاهرة، ١٩٧٢، ج ١،

ص ٥٣.

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٢.

(٣) سورة المائدة الآية ٨٢.

أى أن المسيحيين بحكم القرآن هم أقرب الناس مودة للمسلمين.

ويمدح القرآن الكريم النصارى بقوله :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّنا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١).

ويقول المفسرون فى شرح لا يستكبرون إن المقصود بها هو أن المسيحيين

لا يستكبرون على اتباع الحق.

لا إكراه فى الدين

يقرر القرآن الكريم القاعدة الذهبية لمجادلة أهل الكتاب :

﴿وَلَا تُجْبَدُوا لَهُ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا

بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٢).

ويمنع إكراههم على الإسلام :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (٣).

حدود العلاقة

ويبيح للمسلمين طعامهم ، ويبيح لهم طعام المسلمين ليؤكد على معانى

الترايط والود الاجتماعيين :

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ

حِلٌّ لَهُمْ﴾ (٤).

(١) سورة المائدة الآية ٨٢.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٦.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٤) سورة المائدة الآية ٥.

ويسمى القرآن المسيحيين بأهل الكتاب، وإذا عاهدوا المسلمين على العيش معهم فى سلام كانوا أهل ذمة، لا تجوز حربهم، ويجب على المسلمين صيانة دمائهم وأموالهم والدفاع عنهم ضد أى عدوان خارجى. ولا يكتمل إسلام المسلم إلا إذا آمن بالإنجيل وبأن المسيح رسول الله، طبقا للحديث النبوى، ففى الحديث النبوى أن جبريل سأل النبى صلى الله عليه وسلم:

– ما الإيمان؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره».

وفى الحديث النبوى يشدد النبى صلى الله عليه وسلم على ضرورة حسن معاملة أهل الذمة من المسيحيين واليهود فيقول:

«من قتل نفسا معاهدا (أى بينه وبين المسلمين عهد) لم يرح (يشم) رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما^(١)».

النصارى حموا الدعوة الإسلامية

وقد جاء فى السيرة النبوية ما يبين لنا دور النصارى فى حماية الدعوة الإسلامية فى بدايتها من أعدائها، ففى العام الخامس للبعثة النبوية وجد النبى صلى الله عليه وسلم أن أذى قريش يشتد على أصحابه فقال لهم «لوخرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه» واستجاب المسلمون

(١) ورد فى صحيح البخارى.

المستضعفون لنصيحة نبيهم، وخرج عدد قليل منهم سرا بحيث لا يعرف به أحد، وكان من بين هؤلاء المهاجرين عثمان بن عفان رضى الله عنه وزوجه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستقل الجمع سفينة من ميناء يقال له الشعبية، وتوجهوا إلى الحبشة.

كان ذلك فى رجب، وبقي المهاجرون فى الحبشة شهور شعبان ورمضان، ثم سمعوا أن صلحا وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش فعادوا فى شوال، لكنهم وجدوا أن ما أشيع عن الصلح غير صحيح، وعاشوا مرة أخرى يعانون من الاضطهاد فقرروا العودة للحبشة، وكان العدد هذه المرة كبيرا يبلغ حوالى مئة نفس، ثلاثة وثمانون رجلا وثمانى عشرة امرأة، من بينهم أيضا عثمان بن عفان وزوجه، ابنة النبي صلى الله عليه وسلم. أثار هذا العدد الكبير غيظ قريش فقررت ألا تقف صامته، وأرسلت خلف المهاجرين رجلين هما عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص (قبل إسلامهما)، وحملتهما بالهدايا للنجاشى ولكل من حوله، وما لبثا أن وصلا إلى بلاد النجاشى والتقيا به بعد أن حرصا رجاله على هؤلاء القادمين إلى بلادهم، لكن الرجل العادل رفض أن يتخذ أى قرار دون أن يسمع للطرف الآخر، وبعث فدعاهم إليه، وتقدم جعفر بن أبى طالب ليتحدث عنهم.

قال جعفر للنجاشى: «كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا

نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله؛ فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعدبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجعنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟

قال جعفر: نعم.

وقرأ عليه صدر (كهيعص)، وتقول الرواية أن النجاشي بكى حين سمع الرجل يتلو القرآن، ثم قال: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.

واستدار إلى رسول قريش ليبلغهما رأيه. قال لهما: انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما.

رأى عمرو بن العاص وهو داهية العرب ألا يستسلم للهزيمة فقرر أن يقوم بمحاولة أخرى، ولم يطلب هذه المرة تسليم المهاجرين، بل قال للنجاشي المسيحي ما يتعلق بنبيه حتى يفسد العلاقة بينه وبين الفارين إلى بلاده، فماذا قال له؟

قال: «أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه».

وأرسل النجاشي فاستدعى المهاجرين مرة أخرى. وسألهم عما يقولونه في عيسى عليه السلام، وأجابه الناس برأى الإسلام في المسيح، قالوا: «هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول». فقال النجاشي معلقاً على ما سمع وهو يشير لعود يمسك به: «والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود» أى أن ما قاله المسلمون لم يبتعد عن حقيقة عيسى بن مريم مسافة كبيرة^(١).

ويعلق الشيخ محمد الغزالي في كتابه الرائع «فقه السيرة» على قول النجاشي بقوله: «اختلف النصارى قديماً في طبيعة المسيح على مذاهب شتى. وكان هناك مذهب يقوم على اعتباره بشراً مرسلًا، وليس إلهًا ولا نداً لله. ولا يزال في الغرب المسيحي أناس يعتقدون هذا المذهب الموحد. ونحن نعتقد أن نجاشي الحبشة على هذا الرأي^(٢)...».

وسواء أكان النجاشي كما قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله وهو احتمال كبير، أو كان مجرد رجل واسع الأفق يؤمن بالتعددية، أو قال ذلك لمجرد أن يكف أصحابه عن نزلاء بلده من أصحاب الدين الآخر، فمن المؤكد أنه لم يطرد المسلمين من أرضه، وظل المسلمون هناك حوالى خمسة عشر عاماً. فقد رجع جعفر بن أبي طالب وأصحابه في العام

(١) عبد الملك بن هشام: سيرة ابن هشام، القاهرة، ١٩٧٤، ج ٢، ص ١٠٤.

(٢) محمد الغزالي: فقه السيرة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ١٠٤.

السابع للهجرة، ومعنى هذا أن دور النجاشي كان عظيماً واستمر طويلاً دون أن يضيق بمن دخلوا بلاده واستمروا بها.

وتذكر كتب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى النجاشي يخطب منه أم حبيبة (واسمها: رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب) فزوجها للنبي ابن عمها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بالحبشة، وأصدقها (أى دفع لها صداقاً) النجاشي عن النبي أربعمائة دينار، وبعثها مع شرحبيل بن حسنة. وهذا الحادث يبين لنا طبيعة العلاقة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين هذا الملك المسيحي الذي احتضن المسلمين في أرضه في وقت شديد الخطر.

وفي السيرة النبوية المزيد من الشواهد التي تبين العلاقة الطيبة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المسيحيين، فمن المؤكد أنه لم يحاربهم كما حارب اليهود، وأنهم لم يكيدوا له كما كاد له اليهود.

في ضيافة عداس

ومن اللفتات الطيبة التي تبين موقف المسيحيين من النبي صلى الله عليه وسلم ما حدث له في الطائف حين ذهب لدعوة أهلها للإسلام، فقد قالوا له: «أخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض» وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويرمونهم بالحجارة، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فلما دخل الحائط (البستان) رجعوا عنه. فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس فقالا: «خذ قِطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى هذا الرجل، فقل له يأكل منه».

فأقبل عداس بالطبق حتى وضعه بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال له: «كل».

فلما وضع الرسول يده فى الطبق قال: «بسم الله» ثم أكل فنظر عداس فى وجهه وقال: «والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد». فقال له صلى الله عليه وسلم: «من أى البلاد أنت؟ وما دينك يا عداس؟».

فقال: «نصرانى، وأنا من أهل نينوى».

فقال صلى الله عليه وسلم: «أنت من مدينة الرجل الصالح يونس بن متى؟».

فقال عداس: «وما يدريك ما يونس بن متى؟ فإنى خرجت والله من نينوى وما فيها عشرة يعرفون ما متى! فمن أين عرفت ابن متى وأنت أمى وفى أمة أمية؟».

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذلك أخى كان نبيا وأنا نبي أمى».

فقام عداس وأكب على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه. فقال أحد الأخوين عتبة وشيبة للآخر: «أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس قال له أحدهما: «ويلك، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟».

فقال له: «ياسيدي ما فى الأرض شىء خير من هذا، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبي».

فقال: «ويحك يا عداس ليصرفنك عن دينك وليفتننك عن نصرانيتك، فإنه رجل خداع، ودينك أفضل من دينه»^(١)

عهد النبي للنصارى

ولعل آخر ما نختم به هذا الجزء من حديثنا هو الوقوف عند قصة المباهلة، فقد كان المسيحيون يدخلون مع النبي صلى الله عليه وسلم فى مناقشات وجدل حول أوجه الخلاف بين عقائدهم وما جاء به الإسلام، لكن المناقشات مهما طالنت كانت تلتزم باحترام حق كل طرف فى أن يتمسك بدينه. وتنتهى دون عنف. وتروى لنا السيرة قصة المناقشة التى دارت بين النبي ونصارى نجران، وهى واحدة من أطول قصص المناقشة بين النبي ونصارى الجزيرة العربية. وفى نهاية المناقشة قال النبي صلى الله عليه وسلم للطرف الآخر كلاما سجله لنا القرآن فى سورة آل عمران:

﴿ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾^(٢).

وقد رفض المسيحيون الدخول فى المباهلة، وانتهت القصة بالصلح، وكتب لهم النبي صلى الله عليه وسلم كتابا نرى ضرورة أن نورد جزءاً منه لما له من دلالة:

(١) رفاة الطهطاوى: نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز، (تحقيق: عبد الرحمن حسن محمود، وفاروق حامد محمد) القاهرة، ٢٠٠٦، ١٣٦.
(٢) سورة آل عمران الآية ٦١.

«النصارى نجران جوار الله وذمة محمد النبي صلى الله عليه وسلم، على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم. وغائبهم وشاهدتهم، وعشيرتهم وتبعهم. وأن لا يغيروا مما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا ملتهم، ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم ريبة ولا دم جاهلية، ولا يحشرون - يكلفون بجهاد - ولا يعشرون - يكلفون بزكاة - ولا يطاء أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف (الإنصاف) غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربا فذمتى منه بريئة. ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر.

وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأتى الله بأمره، ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم»^(١).

مما سبق نرى كيف نظر الإسلام للمسيحيين وكيف كانت العلاقة طيبة بين نبي الإسلام وبين نصارى عصره، وكيف كان المسيحيون حماية للمسلمين فى مواجهة كفر قريش واضطهادهم للنبي وأتباعه.



(١) فقه السيرة: ص ٣٦٨.